

# برنامج التعليم الاضطراري الذي تنظمه «لجنة الإنقاذ الدولي» للأطفال والمراهقين الشيشان

بقلم: ربيكا وينثروب وتيريسا شتيتشيك وويندي سميث وجيليان دان

منظمة للأعداد الكبيرة من الأطفال والشباب النازحين، وبناء قدرات مجتمع النازحين للاستجابة لاحتياجات أطفالهم. وأثناء المرحلة الأولى، قدم البرنامج تمويلًا لتأمين الموارد التعليمية والمكان اللازم للمدارس المؤقتة، وتدريب المدرسين الشيشان النازحين على كيفية التصدي للتحديات المعقدة المتمثلة في العمل بموارد شحيحة وفي فصول دراسية مكتظة ومتعددة الأعمار، وتقديم أنشطة ترفيهية مثل المجموعات المسرحية من مختلف المخيمات، وتشجيع القيادات الشبابية، ومشاركة الآباء في تخطيط البرامج وتنفيذها.

وفي مستهل البرنامج، شرعت «الوحدة المعنية بالأطفال المتضررين من الصراع المسلح» في «لجنة الإنقاذ الدولي»، بالتعاون مع أحد الباحثين من مدرسة الصحة العامة بجامعة هارفارد<sup>١</sup>، في دراسة طويلة لأثر البرنامج على المراهقين الشيشان، وهي واحدة من الدراسات العديدة التي تجري حالياً في إطار برامج «لجنة الإنقاذ الدولي»، والتي ترمي إلى التثبت بصورة أفضل مما إذا كان بمقدور المنظمات الخارجية أن تتهض بدور في زيادة هياكل الدعم الاجتماعي وتعزيز التكيف النفسي الاجتماعي للأطفال والشباب المتضررين من الصراع. ونوجز فيما يلي نتائج المرحلة الأولى من المشروع البحثي الذي أجري مع الشباب الشيشاني:

## هل يستطيع التعليم الاضطراري تعزيز التكيف النفسي الاجتماعي؟

لقد أظهرت الدراسات السابقة أن الأطفال المتضررين من الحرب يستفيدون فعلاً من التدخل على المستوى الفردي؛ أما عمليات التدخل لتقديم الدعم الاجتماعي على مستوى المجتمع المحلي، مثل برامج التعليم الاضطراري، ودورها في التخفيف من وطأة الصدمة النفسية الناجمة عن ويلات الحرب، فلم تخضع للدراسة بصورة محددة. وكان محور الدراسة التي أجريت هو تقييم برنامج التعليم الاضطراري الذي قدمته «لجنة الإنقاذ الدولي» للوقوف على مدى مساهمته، أو قصوره، في إحراز أهداف نفسية اجتماعية من قبيل تعزيز الدعم الاجتماعي للشباب الشيشاني، وتخفيف صور الإجهاد

على مدى العقد المنصرم ركز المشاركون في الأنشطة الإنسانية اهتمامهم ومواردهم على التطوير التربوي باعتباره نوعاً محددًا من التدخل يهدف إلى التخفيف من وطأة بعض الكروب البدنية والنفسية التي تصيب الأطفال أثناء الحرب.

يتراوح بين ١٥٠ ألفاً و١٨٥ ألفاً من الشيشان - ٤٥ في المائة منهم دون الثامنة عشرة - لائذين بجمهورية إنغوشيا المجاورة. ويعيش معظم الشيشان الذين استقر بهم المقام في إنغوشيا وسط المجتمعات المضيفة، ولو أن بعضهم يعيشون في المخيمات أو في «مستوطنات تلقائية» تقع في أراضٍ خالية أو مهجورة. ويمثل النازحون من الشيشان نحو نصف عدد سكان إنغوشيا في الوقت الحالي، الأمر الذي يقلل كاهل البنية التحتية العامة في إنغوشيا، ولا يستطيع نظام التعليم إلا أن يستوعب نسبة صغيرة من الشيشان النازحين. ولا يتجاوز عدد الشيشان النازحين المسجلين حالياً في المدارس الإنغوشية ١٠ آلاف تلميذ؛ أما الغالبية العظمى من الأطفال والشباب النازحين فليست أمامهم أي فرص تعليمية على الإطلاق. وقد بدأت «لجنة الإنقاذ الدولي» برنامجها التعليمي الاضطراري في يناير/كانون الثاني ٢٠٠٠ بأنشطة تعليمية وترفيهية غير نظامية في ١١ من المستوطنات التلقائية؛ وكان الهدف منها هو تقديم أنشطة

**تتمتع** «لجنة الإنقاذ الدولي» بخبرة واسعة في هذا الميدان حيث قامت بإدارة ٤٠ برنامجاً تربوياً في ٢٠ بلداً من البلدان التي شهدت صراعات على مدار السنوات الثلاث الماضية. ورغم ذلك فلم تكذب تجرى أي أبحاث ذات بال للتثبت من افتراضاتنا بشأن السبل التي من خلالها يساعد التدخل التربوي الأطفال في أوقات الأزمات. وتركز هذه المقالة على النتائج الأولية لمشروع بحثي يدور حول دور البرنامج التعليمي الاضطراري الذي تنظمه «لجنة الإنقاذ الدولي» في التكيف النفسي الاجتماعي للمراهقين الشيشان الذين نزحوا إلى إنغوشيا بسبب الصراع<sup>١</sup>.

أعلنت جمهورية الشيشان استقلالها عن الاتحاد الروسي عام ١٩٩١؛ وأدى القتال الضاري الذي بدأ في الفترة بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٦، ثم تجدد عام ١٩٩٩، إلى تدمير جانب كبير من الشيشان، ووقوع خسائر بشرية فادحة، ونزوح جماعي للسكان، حيث فر ما

مدرسة بوغاتير



النفسى والاجتماعي التي تعرضوا لها<sup>٢</sup>. وقد جمعت بيانات نوعية وكمية في المواقع التي بدأ فيها برنامج «لجنة الإنقاذ الدولي» لتوه، وفي المواقع التي كان فيها البرنامج التعليمي جارياً منذ ما يتراوح بين سبعة وثمانية أشهر. وقيست في إطار هذه الدراسة صور الإجهاد الانفعالي والسلوكي لدى المراهقين المشاركين، والعوامل التي تساهم في هذا الإجهاد، بالإضافة إلى عوامل وقائية من قبيل الدعم الاجتماعي من العائلات والأصدقاء وأطراف أخرى مهمة، وإدراكهم لمدى «الترايب» مع غيرهم، أي التقارب والرعاية والتفاهم المشترك والاحترام السائد في العلاقات بينهم وبين عائلاتهم وأقرانهم وسائر أفراد المجتمع المحلي، ورؤيتهم للبرنامج التعليمي.

## يدرك اليافعون الشيشان ... أن عليهم أن يشبوا ويبلغوا أشدهم بسرعة

### عوامل الإجهاد المتعددة

في الوقت الذي أجريت فيه هذه الدراسة، كان المراهقون الشيشان يعانون من العديد من العوامل الانفعالية والبيئية التي جعلتهم عرضة للأخطار، ووقفت حجر عثرة أمام عملية شفائهم؛ ويتحدث هؤلاء المراهقون عن ضرورات حياتهم اليومية، وشطف العيش في المخيمات أو المباني المهجورة، وشح الغذاء والدواء والمواد التعليمية، والقلق على الآباء. ويصف هؤلاء الأشخاص ما يكابدونه من الذل والهوان حيث اضطرتهم الظروف للحياة كالسواثم، وباتوا عاجزين عن تحقيق أبسط رغباتهم، وهي «الحياة كسائر الشباب»، والمشاركة في الألعاب البسيطة، أو الأنشطة المدرسية، أو الأنشطة التي تجري على صعيد المجتمع المحلي. ويجد هؤلاء المراهقون صعوبة بالغة في الحياة «كضيوف» في إنفوشتيا، ويتنازعهم شعوران: شعور بالامتنان تجاه السكان الإنعوش الذين احتضنهم وأكرموا وفادتهم، وشعور بالإحباط لأنهم كثيراً ما يتعرضون للسخرية أو المضايقات من جانب الشبان المحليين أو السلطات. وقد ذكر البعض أنهم «عاطلون» و«يضيعون الوقت» وكان الأولى أن يكونوا «منشغلين بعمل ما» أو أن يسعوا لكسب الرزق وإعالة أسرهم. ويدرك اليافعون الشيشان كيف تعطلت حياتهم، وكيف بات لزاماً عليهم أن يشبوا ويبلغوا أشدهم بسرعة.

وقد أوضحت الأبحاث أن من العسير على الكثير من الشباب التمتع بصحة أترابهم من اليافعين في مثل هذه الأجواء المشحونة بالانفعالات التي تسود بعض المستوطنات؛ فقبل بدء البرنامج حاول الشباب تنظيم أنشطتهم، ولكنهم واجهوا مقاومة من الكبار الذين ساءهم أن يروا الشباب يستمتعون بأي وسيلة من وسائل اللهو والترفيه وسط العسر

والشقاء الناجم عن التشرد والنزوح.

ولدى وصولهم إلى المستوطنات، كان الكثير من الشباب قد فقدوا منازلهم وشعورهم بأن هناك «مكاناً» يمكنهم العودة إليه؛ وعندما سئلوا عن أهم شيء للشباب في الوقت الحالي، تحدث الكثيرون منهم عن أهمية وجود «مكان» يتخذونه مستقراً لهم أثناء هذه الفترة الانتقالية.

### أهمية المكان

تشير النتائج الأولية إلى أن الشباب الشيشاني يرون أن البرنامج التعليمي مفيد من حيث أنه يساعد الشباب على العودة إلى دراستهم، فضلاً عن أنه يتيح للأطفال مكاناً آمناً يطمنون إليه، وحيزاً انفعالياً يصرفون فيه أفكارهم نحو اهتمامات تناسب سنهم. ولا يشعر المراهقون أن الشباب بحاجة إلى مكان «ينسون فيه الحرب وهمومها»

فحسب، وإنما هم أيضاً بحاجة إلى مكان يتسنى فيه «تفهم» مشاكلهم وهمومهم. وقد نوقشت العلاقات بين المدرسين والقيادات الشبابية والزملاء في البرنامج التعليمي، من حيث كونه مصدراً مكملاً لتقديم المساعدة والمعلومات للأطفال عندما لا يتسنى لأبائهم قضاء أي وقت معهم. بل إن البرنامج التعليمي ينظر إليه باعتباره مجالاً يتيح للأطفال الاتصال بالآخرين، والحصول على الدعم الاجتماعي، ويمنحهم الأمل في استشراف مستقبل أفضل. وقد تحدث الكثير من اليافعين عن فرصة الدراسة بأي شكل من الأشكال باعتبارها وسيلة لتحسين احتمالات تحقيق السلام والنجاح في جيلهم، وعلى مستوى المنطقة بأسرها. كما تحدث المراهقون بوجه عام عن رغبتهم في التغلب على ويلات الحرب، وفي أن تسنح لهم مستقبلاً فرص النجاح والنماء.

### أهمية فرص القيادة

تصف القيادات الشبابية في البرنامج التعليمي بعضاً من أقوى الأدلة على الفوائد التنموية التي تعود على الشباب من وراء البرنامج؛ إذ يرى هؤلاء المراهقون أن مشاركتهم في الأدوار القيادية في برنامج التعليم الاضطراري قد أثرت على شعورهم بأنفسهم وقدراتهم على مساعدة الآخرين. وأوضح العديد من القيادات الشبابية أن هذه التجربة كان لها أثر على تفاعلهم مع الآخرين، وعلى أفكارهم بشأن خياراتهم المهنية مستقبلاً.

### الحاجة للتحويل إلى التعليم الرسمي بأسرع ما يمكن

لا شك في أن البرنامج التعليمي كان مصدراً للدعم الاجتماعي للمراهقين، غير أنه سبب

لهم في الوقت ذاته توتراً نفسياً ناجماً عن طابعه غير الرسمي. ففي بادئ الأمر كانت المدارس التي تدعها «لجنة الإنقاذ الدولي» لا تكاد تبدي أي اهتمام بتوزيع التلاميذ على صفوف دراسية لأن الكثير من التلاميذ كانوا متأخرين في تعليمهم المدرسي، وكانت النصوص والمواد التدريسية لا تزال شحيحة، وكان المدرسون بحاجة للتدريب، والبرنامج بحاجة للتسيق مع وزارة التربية والتعليم الإنفوشية، مما يضمن إمكانية الانخراط مستقبلاً في نظام التعليم الرسمي واعتماد المستويات التعليمية. ونظراً لنقص المعلمين المدربين للتدريس في أكثر من مادة، فقد تعذر تدريس جميع المواد، وكان العديد من الفصول الدراسية يضم تلاميذ من مختلف الأعمار والمستويات الدراسية، مما يجعل الانخراط الفوري في التعليم الرسمي أمراً في منتهى الصعوبة. ورغم أن الطابع غير الرسمي للبرنامج قد نشأ في مراحله الأولية، إلى حد كبير، عن رغبة مفهومة في أن يشعر الأطفال بالأمان والراحة، فقد شعر الشباب أن البرنامج كان في الواقع «غير طبيعي»، وهو الأمر الذي سبب نوعاً من التوتر النفسي لدى اليافعين إذ جاء مناقضاً لرغبة الكثيرين منهم في أن يكون تعليمهم شريعياً وسوياً. وقد تلهف التلاميذ المراهقون لأوضاع التعليم المدرسي الرسمي وفرص الاختبار التي أضفى عليها المسؤولون التعليميون المحليون طابعاً شريعياً. وقد أصبح برنامج التعليم الرسمي وكأنه شعار مميز للشيشان النازحين، حيث شعروا وكأنهم يحيون حياة «غير سوية» أو «غير طبيعية» في عالم آخر مواز، وذلك لأنهم لا يتلقون ما يعتبرونه تعليمياً مدرسياً «نظامياً».

### تبوء الأسرة مكان الصدارة

أظهرت البيانات المستخدمة في قياس العلاقة بين عوامل الإجهاد والتوتر ووسائل الدعم والمساعدة التي حددها المشاركون أن أهم عامل يخفف من الكروب الانفعالية والسلوكية التي يتعرض لها المراهقون هو مدى ارتباطهم بأسرهم؛ فكلما قوي شعور المراهقين بوجود صلات وثيقة قائمة على المودة والحنان والاحترام بينهم وبين أسرهم، تحسنت صحتهم النفسية. كما أظهرت البيانات أن المراهقين اعتبروا علاقتهم بأقربانهم ومجتمعهم المحلي أمراً مرتبطاً بتحسّن صحتهم النفسية. وهذه العوامل، وإن كانت تنفّر إلى الأهمية الإحصائية التي يتمتع بها عامل الارتباط الأسري، إلا أنها أظهرت ميلاً نحو تخفيف الكروب النفسية.

### النتائج المتعلقة بالتخطيط لمشاريع التعليم في حالات الطوارئ

تؤكد النتائج المستخلصة من المرحلة الأولى من المشروع افتراضاتنا العامة بشأن دور

١ لاستعراض نشاط «لجنة الإنقاذ الدولي» في الشيشان وإنغوشيا بوجه عام انظر:  
www.theirc.org/where/index.cfm?fa=show&locationID=12

٢ يقوم بتمويل هذا المشروع برنامج ميلون ومعهد ماساشوستس للتكنولوجيا بشأن المنظمات غير الحكومية والهجرة القسرية ومؤسسة «بانيان تري فاونديشن».

٣ هذه المرحلة من الدراسة تستند إلى نظريات ومناهج للبحث النوعي الذي يتركز فيه الاهتمام على وصف التفهم المحلي للخبرات والتجارب، والمصادر الممكنة للتحيز الشخصي والخارجي. وهذا المنهج مفيد بوجه خاص عند تطبيقه في ظروف تنتم بالتنوع الثقافي، حيث يسمح بأن يكون لتفهم الخبرات والتجارب المحلية الأسبقية على ما سواه، بدلاً من أن يكون مقيداً تقيداً صارماً بنظرية خارجية.

٤ للحصول على معلومات كاملة عن نتائج المرحلة الأولى من المشروع، يرجى الاتصال بتيريسا شتيتشيك على العنوان التالي: tstichic@hsph.harvard.edu

مغنون صغار يستعدون لاستعراض فني في المركز الثقافي للجنة الإنقاذ الدولي، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩١.

Photos: IRC



وساق، ومن المزمع إصدار النتائج الكاملة للدراسة عما قريب ٤.

ريبكا وينشروب هي أخصائية في البرنامج التعليمي، في وحدة الأطفال المتضررين من الحرب، التابعة «للجنة الإنقاذ الدولي» (www.theirc.org)؛ عنوان بريدها الإلكتروني: [Rebeccaw@theIRC.org](mailto:Rebeccaw@theIRC.org) وويندي سميث هي المستشار الفني التعليمي بالوحدة؛ وعنوان بريدها الإلكتروني: [wendy@theirc.org](mailto:wendy@theirc.org) وجيليان دان هي منسقة الاستجابة الطارئة بوحدة الاستجابة الطارئة في «لجنة الإنقاذ الدولي»؛ وعنوان بريدها الإلكتروني: [gilliand@theirc.org](mailto:gilliand@theirc.org) وتيريسا شتيتشيك هي باحثة مستقلة بمدرسة الصحة العامة في جامعة هارفارد؛ وعنوان بريدها الإلكتروني: [tstichic@hsph.harvard.edu](mailto:tstichic@hsph.harvard.edu)

ملاحظة للمحررين: للحصول على مزيد من المعلومات الحديثة بشأن النزوح وقضايا حقوق الإنسان في الشيشان (حيث نرحب نحو ثلث تعداد السكان عن ديارهم داخل وطنهم)، ارجع لمنظمة «مراقبة حقوق الإنسان» على العنوان التالي:  
[www.hrw.org/campaigns/russia/chechnya](http://www.hrw.org/campaigns/russia/chechnya)، وانظر أيضاً:  
Medecins du Monde على الموقع التالي:  
[www.reliefweb.int/library/documents/2002/mdm-chez-31jul.pdf](http://www.reliefweb.int/library/documents/2002/mdm-chez-31jul.pdf)

تلميذ في مدرسة اللجنة الإنقاذ الدولي، تزيلا، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠١.

المبادرات التعليمية في تلبية احتياجات الأطفال المتضررين من الحرب عن طريق مساعدة المجتمعات المحلية على إنشاء هياكل للدعم الاجتماعي تعزز عملية التوافق النفسي لليافعين في الوقت الذي تسمح فيه باستمرار التعليم. كما تشير الأبحاث إلى استراتيجيات منهجية محددة ينبغي الأخذ بها، مع تسليط الضوء على الحاجة لهيئات إنسانية تعمل في ميدان التعليم الاضطراري، وذلك لتحقيق ما يلي:

- دعم البرامج التي لا يقتصر نشاطها على استهداف الشباب على نحو فردي.
- إدراك دور الارتباط بالأسرة، والأقران، والمجتمع المحلي في الصحة النفسية للشباب المتضررين من الحرب وقدرتهم على التكيف والتوافق.
- تشجيع الآباء والأسرة الممتدة على المشاركة في التعليم من خلال مجموعات المناقشة التي تضم الأسرة والتلاميذ والمعلمين، أو الأنشطة الصحية المدرسية، أو اللجان التعليمية بالمجتمع المحلي.
- التعاون من البداية مع السلطات المحلية بهدف التحقق من اعتماد السلطات التعليمية المحلية لتعليم الطلاب وتدريب المعلمين.
- التحول، كلما أمكن، من الطابع غير الرسمي اللازم للتدخل الفوري إلى البرامج التعليمية الرسمية.
- استكشاف الترتيبات الجماعية لرعاية الطفل بهدف زيادة الفرص المتاحة للآباء والتلاميذ للمشاركة في البرامج التعليمية.
- تخصيص المزيد من الموارد لدراسة آثار التعليم في حالات الطوارئ والارتقاء بمستوى البرامج التعليمية.

### البرنامج الحالي «للجنة الإنقاذ الدولي» في إنغوشيا

لقد أثمرت الجهود المبكرة التي بذلتها «لجنة الإنقاذ الدولي» من أجل السريع إلى التعليم الرسمي عن قيام وزارة التربية والتعليم الإنغوشية الحالية باعتماد التعليم في المدارس التابعة للجنة. وقد تطور البرنامج التعليمي حالياً ليشمل طائفة واسعة من الأنشطة الثقافية، والتربية المهنية، والتعليم المعجل، وإعادة بناء المدارس في الشيشان. وتجري المرحلة الثانية من المشروع البحثي على قدم